تفكروا تدبروا تعقلوا

دكتور فلاح نجم العاني
استاذ في كلية الإمام الأعظم الجامعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد.

أود أن أوضح مسألة مهمة ذكرها الله تعالى في محكم كتابة في ثلاثة مسائل مهمة في خلق الإنسان والحكمة من ذلك الذي يولد بها الإنسان على فطرة الإسلام.

قال تعالى في محكم كتابه العزيز:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الروم: ٢٠-٢٤).

ذكر سبحانه وتعالى ميزات الإنسان في الحياة. جولة ضخمة هائلة، لطيفة عميقة، بعيدة الآماد والأغوار. جولة تطوّف بالقلب البشري في الأمسيات والأصباح، والسماوات والأرض، والعشي والإظهار، وتفتح هذا القلب لتدبر الحياة والموت والعمليات الدائبة في النشوء والدثور. وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى، وإلى ما ركب في فطرته من ميول ونوازع، وقوى وطاقات، وما يقوم بين زوجيه من علائق وروابط، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات. وتوجهه إلى آيات الله في خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقًا لاختلاف البيئة والمكان.

عندما أتت تنتشرون بصيغة السرعة نرى أن هناك تناسب، هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه فقال:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ

وذلك بخلق أصل النسل؛ آدم عليه السلام:

ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ

أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة، وبثكم في أقطار الأرض، وأرجائها؛ ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض؛ هو الرب المعبود الملك المحمود والرحيم الودود الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

وتسلسلت الآيات في اطار العقل؛ يميزنا الله سبحانه وتعالى عن باقي المخلوقات:

وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً

لقد اقتضت حكمة الباري تبارك وتعالى، ولا راد لحكمته، أن ينشئ الحياة من ذكر وأنثى، وبينهما ميلا فطريا للآخر، فإليه يسكن، وبه يأنس، فلو كانت جنساً آخر لم يحصل هذا السكن، ولو كانت من عنصر آخر، من مخلوقات أخرى؛ فإن هذا السكون لا يحصل؛ ولا يتأتى؛ فالجنسان المختلفان لا يسكن أحدهما إلى الآخر بحال، ولا يميل إليه، ومن فوائد هذه الحكمة التي أرادها الله في الإنسان لفائدة بينهما ذكرهما الغزالي في كتابه "الإحياء"، إحداهما:

- أن يدرك لذَّتَه الدنيويَّة؛ ليقيسَ لذات الآخرة، وهذا لا يكون إلا بلذَّة محسوسة مدركة، فإنَّ ما لا يُدرك بالذوق لا يعظُم إليه الشوق،
- وأمَّا الفائدة الثانية: فهي بقاء النَّسْل ودوام الوجود.

وإنَّ تحصيل هذه الشهوة ضمان استمرار بقاء النسل، لا يكون إلا عن طريق نِظام يسيرون عليه، حتى يتميَّزوا عن تلك الحيوانات التي تُشبِع غرائزها الفطرية بطرائق عشوائيَّة، همُّها فقط الإشباع لهذه الغريزة دون تفكير في كيفية الإشباع، وتتكاثر دون تفكير في كيفية التكاثُر.

أما الإنسان السويّ الذي بقي على فطرته ولم تنتكس، أو الإنسان الذي حافظ على إنسانيته، فهو يتميز تمامًا عن تلك الحيوانات، بطريقة وكيفية على وفق شرع الله وعلى منهج يتميز به.، فالعلاقة الزوجيَّة هي علاقة روحية معنوية أكثر منها علاقة حيوانية بهيمية، وهذا ما حض عليه الشرع ووصى به.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ يَتَفَكَّرُونَ

أي إن فيما سلف من خلقكم من تراب، وخلق أزواجكم من أنفسكم، وإبقاء المودة والرحمة لعبرة لمن تأمل في تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم والمصالح، فهي لم تُخلق عبثًا، بل خلقت لأغراض شتى، تحتاج إلى الفكر حتى يصل إلى معرفتها ذوو الذقن والعقل الراجح.

ثمّ ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول سبحانه وتعالى:

وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ

وبلا شك فإنّ الحياة الاجتماعية للبشر، لا تقوم بغير معرفة وتشخيص الأفراد والأشخاص، إذ لو كان الناس جميعًا في يوم ما على صورة واحدة ولباس واحد، فإن أسلوب حياتهم يضطرب في ذلك اليوم، إذ لا يعرف الأب والابن والزوج من الغرباء، ولا يميز المجرم من البريء، ولا الدائن من المدين، ولا الآمر من المأمور، ولا الرئيس من المرؤوس، ولا الضيف من المضيف ولا العدوّ من الصديق، وأي إرباك عجيب كان سيحدث لو كانوا على هذه الشاكلة!.

وعلى سبيل الاتفاق قد تحدث هذه المسألة بين الإخوة التوائم، أو الشقيقين التوأمين المتشابهين من جميع الوجوه، وكم تحدث من المشاكل بين الناس وبينهم، وقد سمعنا ذات مرّة أن امرأة كان لديها توأمان متشابهان تمامًا، وكان أحدهما مريضًا، فأعطت الدواء لمعافى دون السقيم!!.

لذلك خلق الله الأصوات والألوان لتنظيم المجتمع البشري، على حد تعبير «الرازي» في تفسيره في ذيل الآية محل البحث: إن معرفة الإنسان للإنسان تحصل إمّا عن طريق العين أو الأذن، فخلق الله الألوان والصور والأشكال المختلفة لتعرفها العين وتشخيصها، وأوجد اختلاف الأصوات لتشخيصها الأذن، حتى أنّه لا يمكن العثور في جميع العالم على إنسانين متشابهين في الوجه والصوت معًا، أي إن وجه الإنسان الذي هو عضو صغير، وصوته الذي هو موضوع بسيط، بقدرة الله جاءا على مليارات الأشكال والأصوات المختلفة، وما ذلك الاختلاف إلاّ من آيات عظمة الله.

يقول «فريد وجدي» في دائرة معارفه، نقلا عن قول «نيوتن» العالم الغربي المعروف (لا تشكّوا في الخالق، فإنه ممّا لا يُعقل أن تكون الضرورة وحدها هي قائدة الوجود، لأنّ ضرورة عمياء متجانسة في كل مكان وفي كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات، ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها، مع تغيرات الأزمنة والأمكنة، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلاّ من كائن أزلي له حكمة وإرادة[1].

ثم يختم القرآن في نهاية الآية بقوله تعالى:

إن في ذلك لآيات للعالمين

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ

ومن علامات قدرته نومكم بالليل واستقراركم فيه، حتى لا تكون حركة ولا حس، وسعيكم للأرزاق نهارا بمزاولة أسباب المعاش ووسائله.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

أي إن في فعل الله ذلك لعبرًا وأدلة لمن يسمعون مواعظه فيتعظون بها، ويفهمون حججه عليهم، على أن صانع ذلك لا يعجزه بعث العالم وإعادته.

ويؤكّد القرآن في نهاية هذه الآية مضيفًا:

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

ويفهمون أن وراء هذه الخطة المدروسة يدًا قادرة تقودها وتهديها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصّماء أبدًا.

يُنبِّهنا الخالق عز وجل إلى البحث والتأمل في آياته فيقول: **(تفكَّروا تدبَّروا، تعقَّلوا)**، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه، وهو الإيمان.

[1] دائرة المعارف، محمّد فريد وجدي، ج 1، ص 496 (مادة اله)